بين الماضى والآتى

للاستاذ أديب عباسى

« وصلنا عدد (الرسالة) المائة والسادس والعشرون ، وقد انتهينا إلى جزء هذه المقالة الأخير . وكم كانت دهشة المفاجأة إذ فضضت غلاف الرسالة ووجدت بين بحوثها مقال الأستاذ الكبير أحمد أمين (أمس وغداً) . وكانت بادرة الفكر التى تلت دهشة المفاجأة أن أهمل الموضوع وأوفر على نفسى عناء المراجعة والتنقيح . ولكننى عدت لوقلت قد أكون طرقت الموضوع من ناحية غير التى طرقها الأستاذ ، وقد أكون على خلاف معه فى الرأى أو بعضه . وقرأت المقال فوجدت أننا نسير والأستاذ بعض الطريق ونفترق فى بعضه الآخر . ومن أجل هذا الافتراق أبعث بمقالى هذا إلى (الرسالة) العزيزة »

تمرُّ بزمرة من الشيوخ خلوا الى أنفسهم وأرسلوا أحاديثهم ارسالا لا تحده موضوعية البحث الجدى ، ولا اندفاع العاطفة المثارة ، ولا عصبية الجدل ؛ فتكاد لا تحسُّ فى حديثهم إلا اللهفة العميقة ، والالتياع الشديد على الزمن الفائت ، حيث اللذة لا يكدرها ألم ، والصفو لا يرنقه كدر ، وحيث النعيم أبدا مقيم ، والمنى أبداً حُفَّل دانية ! وينبثُّ اليك من صدق اللهجة واجتماع الرأى وخلوص النية فى حديثهم ما يوحى بأن أعصر السعادة المطلقة قد تلكأت عند شبابهم ، وترخَّصت فقط لماضيهم ، فأقامت ثمَّ لا تبرح ولا تريم ؛ لهذا أقل الحاضر ، وعقم المستقبل ، وغادر الناس طيب العيش وبشاشة الأمل !

تسمع هذا وخلافه مما تفيض به بقايا العمر وأعقاب السنين من الشيخوخة ، فتتدسَّس اليك الحسرة ويغمرك الألم ان تأخر بك الزمن ، ولم يحشرك فى زمرة الشيوخ هذه ، ويجعلك فى حشدهم ، فيكون لك من السعادة مثل ما يتحدثون ويصفون

وتقودك رجلاك من حيث أنت الى زمر أخرى وأفراد آخرين ، بعضهم ما يزال - فى رأى نفسه - يستعدُّ لخوض معركة الحياة ، وبعضهم الآخر - كذلك فى رأى نفسه - قد أعدَّ لها العدَّة ، وهيأ السلاح ، فهو الآن يخوض غمارها ليصطلى بنارها ، أو يستاف العطر الذكى عن أزهارها

وتقف تتسمع ، فما يروعك من هذه الزمر مثلُ انشغالها بمستقبلها عن حاضرها ، وغفلتها عما فى اليد الى ما تمنيها به الغد ، كأن حياة اليوم ليست فى العمر ولا فى تقدير الزمن ، ويمضون هذا المضى ، الغفلةُ عن حاضر الحياة غريبة مدهشة ، والثقة فى المستقبل قوية آسرة ، ويظلُّ هذا دأبهم الى أن يؤذَّن بركود الشباب ، ووشك الانخراط فى سلك الشيخوخة المتهدمة . عندها - وعندها فقط - يصحون ، ولكن لات ساعة صحو

وهنا ينقلب الوضع وينكفئ الاتجاه ، فتحل الذكرى القريبة أو البعيدة محل العزم ، والركود محل النشاط ، والعجز محل القدرة ، وهكذا بين ماضى الحياة وآتيها ، يُسقط الناس كل رصيدهم فيها ، ويجعلون منها - على حد تعبير الرياضيين - الكمية المهملة

وليست هذه الصور التى رسمنا بالصور الخاصة أو الطارئة طروءاً زائلاً ، إنما هى صور لها من طبيعة الشعور وخصائص الاحساس ما يجعلها من ألزم الصور للحياة وأكثرها لصوقاً بها وشيوعاً فيها . فالشيخ ، أو من كان فى حكمه من شبان السنين ، يتَّجه إلى الماضى ليلطف عنده مرارة الحاضر ، وليتعوض بذكراه عما يفيته العجز وضعف المُنة من لذائذ راهنة يراها ولا يرى السبيل إليها كيف يكون . وقد تقول : لم يؤثر الشيخ أن يرتد بخياله إلى ماضى العمر ولا يرى أن يرسله فى مطاوى المستقبل ليلتمس عنده الفرار وينشد السلوان ؟ والجواب سهل هين إذا علمنا أن خيال الشيخ يخونه هنا ، كما يخونه كذلك منطق الواقع ومنطق الاحتمال . فالشيخ يدرك أن سبيله من بقية العمر هى سبيل نازلة لا صاعدة ، وأن كل يوم يمضى يدنيه من النهاية ويقلص لديه بقايا الأمل وأصداء السعادة ؛ وإذاً فالحاضر فسحة مسدودة ، والآتى سبيل مظلم مخيف ؛ أما الماضى فهو السبيل الوحيد الذى يستطيع أن ينساب فيه الخيال دون أن يشله برد الواقع أو تروِّعه بشاعة الحاضر

بالاتجاه نحو الله كما رأى ذلك رينان Renan

عرضنا فى تلك الكلمة الموجزة نشوء بعض تطورات الدين بأوربا ، مما يدعونا الى الاعتقاد أن هناك عوامل أخرى أدت الى تلك الاختلافات الطائفية غفل عنها رجال الدين والفلاسفة ، وهى التى دعت علماء الاجتماع للتعبير عنها بطريقة أخرى غير ما سبق . وذلك موضوع كلمتنا القادمة

(باريس)

محمد مهدول
بجامعة باريس

وقد تسأل : ألم يكن فى ماضى الشيخ الألم كاللذة ، والنعيم كالشقاء ، والحرمان كالأنالة ؟ فكيف يؤثر أن يعيش فى ماضيه دون حاضره وآتيه ؟ وهنا نرجع إلى حقائق الشعور الراهنة ، فيستبين لنا أن الألم الفائت يفقد قيمته مع الزمن حتى لا يبقى منه إلا ذكراه وصداه . وهذه الذكرى – إذا لم يصحب أسباب الألم عند نشوئه حالات ملازمة – تضحى باعثاً على الاطمئنان والراحة . فأنت إذ تفقد كل ما تملك أو تصاب إصابة جائرة فى سمعتك أو تجلس إلى حبيب إليك علّقه المرض بين فكى الفناء والبقاء ، تشعر بالغبطة وانفراج الشعور بزوال الخطر ، حينما يعوض عليك السعى بديلاً من مالك ، وحينما يردُّ إليك الوضع العادل سمعتك ، وحينما يتخطى غول الفناء حبيبك فيرده إليك سليماً معافى تنعم بلقائه نعمتك بكل عزيز عليك . وعليه فتلك الأحداث التى كانت يوماً ناراً يقلب عليها الاحساس ويضرّم الشعور أضحت بعد زوالها مجلبة للراحة والاطمئنان ، فلا عجب إذاً من ارتداد الخيال إلى الماضى وعكوفه عليه

بيد أننا لا ننكر أن ثمة عللاً أخرى غير ما أسلفنا لهـذا المكوف من الشيخ على ماضيه وانصرافه اليه عن آتيه وحاضره : منها أن الشيخ إذ يرتدّ إلى ماضيه يُسيِّر الشعور فى مسارب أضحت بتكرار الحدوث ممهدة لا تعترضه فيها عقبة ولا تتصدى له عثرة . ومن هنا فكرة « الماضى السعيد » عند الشيوخ ، ومن هنا أيضاً ميلهم الميل الشديد إلى المحافظة وإبقاء القديم على قدمه وتجنب كل جديد يصدم الشعور ويدعو إلى تحويله من مجراه المعتاد

ومن هذه العلل أيضاً ذهاب الرفقة وتخطُّف الموت أبناء الجيل الواحد ، بحيث يجىء اليوم الذى يشعر فيه الشيخ انه غريب فى بيئة غريبة ، فيزداد حنينه إلى ذلك الرهط الذاهب من جيله ، فيستعيد بخياله ذكراهم المحبَّبة وأيامه وأيامهم الحافلة

يضاف إلى هـذا لون معهود من ألوان الدفاع عن النفس بتهوين الحرمان عليها وطلب العزاء لها عنه فى الماضى ؛ وهو نوع من أنواع تخدير الاحساس ينشأ أول الأمر فى دائرة الوعى ، ولكنه مع الزمن وتوالى الحدوث والتأثير يتسرب إلى دائرة العقل الباطن ويتخفى فى تيه اللاشعور . وعندها يصدر ذمُّ الحاضر عن عقيدة وينطلق عن يقين . وهذه الظاهرة تبدو أجلى وأوضح فى حياة الجماعات منها فى حياة الأفراد . ومن هنا أن الأمم أهمل حاضرها وازداد تخلفها عن غيرها من الأمم ازدادت حف بالماضى وتفطناً اليه وعكوفاً عليه . ولعل عبادة السلف عند بـ الشعوب ترجع فى معظم الأمر إلى هذا الميل النفسى العميق

* * *

ونعود إلى صورة الشعور كما يرسمها طماح الشباب ويحدد أمله ، فنجد أن الشاب إذ يتجه فى أمانيه وأخيلته وعمله المستقبل ، إنما يجرى على طبيعة الشعور وعوجب قواعده . فالحا لدى الشاب الذى لم يحدد الضعف وقصر المجال وضيق المضط أمله فيه وحدود مسماه ، هو مرقاة منها يرقى إلى غيرها . (فحاضر الحياة من الشاب هو الدرب ، والمستقبل الافق ، ما متجدداً مغرياً بالسعى والسير ما بقيت فى النفس حوافز الـ والسير . ثم ان حاضر الحياة مزيج من الخير والشر واللذة و والنجاح والفشل . أما آتيها فهو كما يرسمه الخيال ويحدده الأ خير ونعيم ونجاح . أما الماضى فقد كان يكون من خياله ما يكـ من خيال الشيخ لولا أن صورة المستقبل صورة قوية رائعة لا للتفكير فى الماضى الا ما يدعه القوى للضعيف . وعلى كل ترى من الشباب من يزوى عن مستقبله ويتجه الى ماضيه إن يكن له ماض ، فمل الشيوخ الذين غادرهم الأمل وأحلام الـ

هـذا تحليل مجمل لصور الشعور فى ثلاثة أطوار الحياة و أزمنتها الثلاثة ، لا نعتقد أننا نتحكم فيه أو نفرضه فرضاً القارىء ، لاسيما اذا أزلنا من الصورة جانبى المبالغة والاغر من تفاؤل رخيص يجمل الحياة ابتسامة طويلة كاذبة ، وتشا عبوس دائم التقطيب ، كما يتمثلان فى حياة نفر من الناس شأنهم الحقيق من الحياة شأن الهامش من الصحيفة ، فيـ وليسوا فيها

مما وصفنا ترى جلياً ان حاضر الحياة – وهو كل حقنا فيها لا ينال من فطنة الشعور إلا قدراً ضئيلاً عابراً إذا قيس بما ؛ أخيلتنا ويكظها من صور الماضى والآتى

وقد تقول : ماذا علينا – إذا كان هذا هو الحال – لنخلّصـ الحياة من هذا العبث الذى يضيع فيه العمر بين لهفة على الماضـ وغفلة عن الحاضر واستشراف للمستقبل ؟ وجوابنا ان من طبيـ

اة أن يتمازج فيها الخير والشر وتساير اللذة الألم ، وانه يستحيل يكون الحياة خيراً كلها أو شراً كلها ، وانه لهذا أضحى واجباً يقبل عليها الناس اقبالاً لا يُفيتهم ما يتيسّر لهم من نعيمها ، يفيتهم — كذلك — النظر إلى المستقبل والسعي في سبيله ؛ ولن ص نظر الناس إلى المستقبل من استمتاعهم بلذات الحاضر إذا فوا كيف يحسنون السير في سبيله سيراً معتدلاً حتى لا يضحى غلة لهم تزحم حاضر الحياة على نصيبها الذي يجب أن يكون من وعي الشعور ، بل نحن نعتقد أن المرء يتيسّر له من سعادة واقع ، مع السعي السليم والتطلع إلى المستقبل الذي لا يقطع المرء ن حياته الحاضرة ، أكثر مما يتيسّر له حينما ينقطع عن ماضيه آتيه ليكبّ على الحاضر وحده يرضع فيه اللذة ويترشف النعيم لى الطريقة الحيوانية

وهذه الحالة السليمة من الشعور لا تحلّ حلولا مفاجئاً ، كما يحلّ الوحي ، ولا تجيء بالسعي الهين أو المعتدل ، انما هي حالة تقتضي السعي الأكيد ، والتعاون الشديد ، من جميع مصادر التوجيه النفسي . ولعل البيت والمدرسة يفوقان في هذا الشأن جميع مصادر التوجيه الأخرى في طول مدى التأثير وعمقه ، فالبيت والمدرسة يستطيعان أن ينشئا الجيل الذي لا يقتله الفشل يرتد الى الماضي يخدّر فيه الشعور ، ولا يستخفه النجاح ، فيستعبده المستقبل ويستذله . ويكون ذلك بأن يتعاون البيت والمدرسة على تعويد الطفل بالتلقين والايحاء تلقي مؤثرات الحياة برحابة في الصدر ، وتوطين للنفس على خير الحياة وشرها على السواء

ويساعد على تكوين هذه الحالة السليمة من التصور مثل التربية الاستقلالية التي يُرباها أبناء الأمم السكسونية ، حيث يتخذ الألم معنى الواقع الذي لا بدّ منه ، واللذة معنى الخير يجيء بالسعي ، فلابدّ من تذوّقه واستمتاعه إلى أقصى حدود الاستمتاع

ويجب كذلك أن يتعاون البيت والمدرسة تعاوناً حكيما في الحد من أنانية الصغار الصارخة ، وإفهامهم أن فرص النجاح ليست وقفاً عليهم وحدهم ، وأن غيرهم لهم من حق النجاح مثل حقهم ؛ فلا تمضي حياتهم آمالاً مخيّبة ، وآلاماً موصولة

كذلك على المدرسة والبيت أن يعوّدا الناشئ كيف يقف من حوادث الحياة موقف الحياد والاستقلال في التقدير ، ومن نفسه موقف المحاسبة والتحليل الدقيق للأوضاع التي تسوقه اليها ماجريات الحياة . بذلك يكتسب ثقة في النفس وتقديراً عادلاً للأوضاع ، يربحانه من خصومة النفس وغربة الوضع وغرابة الاحساس ...

ومن واجب البيت والمدرسة — كذلك — أن يعتاد الصغار تقدير آلام الغير ويستيقنوا أن الناس يتألمون كما هم يتألمون ، وأن ما نشاهده من ظاهر السعادة عندهم هو في أغلب الأحيان دون ما نقدّر ونتوهم

ومن أول واجبات البيت والمدرسة أن ينشئا الصغار على التفطن إلى جميع مظاهر الجمال وتذوقه في الطبيعة والحياة والفن ، فان في ذلك توسيعاً لمدى اللذة وتغليباً لأسباب السعادة على أسباب الشقاء

وأخيرا يجب على البيت والمدرسة أن يفقها أن عملية التربية ليست إعداد المرء للحياة كما تصر نظم التربية القديمة ، إنما هي — كما يقول جون ديوى — فيلسوف النزعة الحديثة في التربية : « الحياة » بذاتها ؟

أديب عباسي

لجنة التأليف والترجمة والنشر

اللآلي

في شرح أمالي القالي

لأبي عبيد البكري

أتمت لجنة التأليف طبع هذا الكتاب الجليل وقد وقف عليه الأستاذ عبد العزيز الميمني أستاذ الأدب العربي بعليگره وعنى بضبطه والتعليق عليه

والكتاب يقع في نحو ١١٥٠ صفحة من القطع الكبير في ثلاثة أجزاء مضبوطة أعلامه وأبياته وغريبه بالضبط الكامل

وثمنه سبعون قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة ومن المكاتب الشهيرة